في الربيع الأزرق (١)

خواطر مرسلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ما أجملَ الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَيْن البحر والسماء ؛ يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ نفسَه مرسوماً في صورة إلهية

* * *

نظرتُ إلى هذا البحر العظيم بعيني طفلٍ يتخيل أن البحر قد مُلِيءَ بالأمس ، وأن السماءَ كانت إناءً له ، فانكفأ الإناءُ فاندفق البحر ؛ وتَسرَّحْتُ مع هذا الخيال الطفليِّ الصغير فكأنما نالني رشاشٌ من الإناء . . . .

إننا لن ندركَ روعةَ الجمال في الطبيعة إلا إذا كانت النفسُ قريبةً من طفولتها ، ومرَح الطفولة ، ولعبها ، وهَذَيانها

* * *

تبدو لك السماءُ على البحر أعظمَ مما هي ، كما لو كنتَ تنظر إليها من سماءٍ أخرى لا من الأرض

* * *

إذا أنا سافرتُ جئتُ إلى البحر ، أو نزلتُ بالصحراء ، أو حللتُ بالجبل ؛ شعرتُ أولَ وهلةٍ من دهشة السرور بما كنت أشعر بمثله لو أن الجبلَ أو الصحراءَ أو البحرَ قد سافرت هي وجاءت إليَّ

* * *

في جمال النفس يكون كلُّ شيء جميلا إذ تُلقي النفسُ عليه من ألوانها ، فتنقلب الدارُ الصغيرةُ قصراً لأنها في سَعَة النفس لا في مساحتها ، وتَعرفُ لنور النهار عذوبةً كعذوبة الماء على الظمأ ، ويظهر الليل كأنه معرضُ جواهر أقيم للحُور العين في السماوات ، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسائمه كأنه جنةٌ سابحة في الهواء

في جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليقة وَيْ كأن الله أمرَ العالَم ألا يعبسَ القلب للبتسم

* * *

أيامُ المَصيف هي الأيامُ التي ينطلق فيها الانسانُ الطبيعيُّ المحبوسُ في الانسان ؛ فيرتدُّ إلى دهره الأول دهر الغابات والبحار والجبال

إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى ، لم يكن فيها معنى

* * *

ليست اللذة في الراحة ولا الفراغ ، ولكنها في التعب والكَدْح والمشقة حين تتحولُ أياماً إلى راحة وفراغ

* * *

لا تتمُّ لذةُ الانتقال من بلد إلى بلد ، إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور ؛ فاذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تبرحْ

* * *

الحياةُ في المصيف تثبت للانسان أنها إنما تكونُ حيث لا يُحْتَفَلُ بها كثيراً

* * *

يشعر المرءُ في المُدُن أنه بين آثار الانسان وأعماله ، فهو هناك في رُوح العَناء والكَدْح والنزاع ؛ أما في الطبيعة فيحُسُّ أنه بين الجمال والعجائب الإلهية ، فهو هنا في رُوح اللذة والسرور والجلال

* * *

إذا كنت في أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً وفَرِّغْه للنَّبت والشجر ، والحجَر والمَدَر ، والطير والحيوان ، والزهر والعُشْب ، والماء والسماء ، ونورِ النهار وظلام الليل ، حينئذ يفتح لك العالَم بابَه ويقول : ادخل

* * *

لطْفُ الجمال صورةٌ أخرى من عظَمَة الجمال ؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من الماء تلمعُ في غصن ، فخُيِّل إليَّ أن لها عظمة البحر لو صَغُر فعُلِّق على ورقة

* * *

في لحظة من لحظات الجسد الروحانية ، حين يفورُ شِعرُ الجمال في الدم — أطلتُ النظرَ إلى وردة في غصنها زاهيةٍ ، عطرة ، متأنقة ، متأنقة ؛ فكدت أقول لها : أنتِ أيتها المرأة ، أنت يا فلانة . . .

* * *

أليس عجيباً أن كل انسان يرى في الأرض بعض الأمكنة

(١) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر

كأنها أمكنةٌ للروح خاصة ؛ فهل يدلّ هذا على شيء إلا أن خيالَ الجنة منذ آدمَ وحوّاء ، لا يزال يعمل فى النفس الانسانية ؟

* * *

الحياةُ فى المدينة كشرب الماء فى كوب من الخزف ؛ والحياة فى الطبيعة كشرب الماء فى كوب من البلّور الساطع ؛ ذاك يحتوى الماءَ وهذا يحتويه ، ويُبدى جمالَه للعين

* * *

وا أسفاه ، هذه هى الحقيقة : إن دقّةَ الفهم للحياة تُفسدها على صاحبها كدقة الفهم للحب ؛ وإن العقل الصغير فى فهمه للحب والحياة ، هو العقلُ الكاملُ فى التذاذه بهما . وا أسفاه ، هذه هى الحقيقة

* * *

فى هذه الأيام الطبيعية التى يجعلها الصيفُ أيامَ سرورٍ ونسيان يشعرُ كلُّ إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمةَ هزلٍ ودُعابة . . .

* * *

من لم يرزق الفكرَ العاشقَ لم ير أشياءَ الطبيعة إلا فى أسمائها وشيآتها ، دون حقائقها ومعانيها ؛ كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلَّهن سواءً ؛ فاذا عشق رأى فيهن نساءً غير من عرف ، وأصبحن عنده أدلةً على صفات الجمال الذى فى قلبه

* * *

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجُه الحياة ؛ أما دنيا المصيف فقائمةٌ بما تلذُّه الحياة ؛ وهذا هو الذى يغير الطبيعة ويجعلُ الجوَّ نفسه جوَّ مائدة ظُرفاء وظريفات . . .

* * *

تعمل أيامُ المصيف بعد انقضائها عملاً كبيراً ، هو إدخالُ بعض الشعر فى حقائق الحياة

* * *

هذه السماءُ فوقنا فى كل مكان ، غير أن العجيبَ أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياءَ منها السماء . . .

* * *

إذا استقبلتَ العالم بالنفس الواسعة رأيتَ حقائقَ السرور تزيد وتتسع ، وحقائق الهموم تصغُرُ وتضيق ، وأدركتَ أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيّقُ لا هى

* * *

فى الساعة التاسعة أذهبُ إلى عملى ، وفى العاشرة أعملُ كيت ، وفى الحادية عشرة أعملُ كيتَ وكيت ؛ وهنا فى المصيف تفقد التاسعةُ وأخواتُها معانيَها الزمنيةَ التى كانت تضمها الأيامُ فيها ، وتستبدلُ منها المعانىَ التى تضمها فيها النفسُ الحرة

هذه هى الطريقة التى تُصنع بها السعادةُ أحياناً ؛ وهى طريقة لا يقدر عليها أحدٌ فى الدنيا كصغار الأطفال

* * *

إذا تلاقى الناسُ فى مكان على حالة متشابهة من السرور وتوهمه والفكرة فيه ؛ وكان هذا المكانُ مُعَدّاً بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهها ـ فتلك هى الرواية وممثلوها ومسرحها (١) أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسان المدنية ومدنية الانسان

* * *

ما أصدقَ ما قالوه : إن المرئىَّ فى الرائى . مرضتُ مدةً فى المصيف ، فانقلبت الطبيعةُ العروسُ التى كانت تزينُ كل يوم إلى طبيعة عجوز تذهب كل يوم إلى الطبيب . . .

شاطىء سيدى بشر (اسكندرية) مصطفى صادق الرافعى

(١) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيل غير صحيح . وأن صوابها المزرح ولكن الصاحب بن عباد استعملها فى قريب من معنى دار التمثيل وأصلها من مرادفات ندى القوم ومجتمعهم

الى الاستاذ ف . ط . بدمشق

لا أستطيع أن أشكرك بما أنت أهله وأرجو بعون الله وتيسيره أن أكون عند ظنك ، ولكن احذرى هذا الوهم الكبير ، وهم المثل الأعلى ، فكل الرجال مثل أعلى فى أول الرواية . . . الرافعى

ظهر حديثاً :

فى أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم

أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشاً عدا أجرة البريد